الكتاب الرابع

تهكم المعرى وفن سخريته

الفصل الأول

ملاذع رسالة الغفران

لا أرتاب فى أن المعرى حشر فى رسالة الغفران مغامز لذعه ومطاوى تهكمه بكثير مما تواضع عليه الناس فى وصف يوم الدين ، والعرض على الحساب ، والميزان ، وتصوير الجنة فى هناءة أهلها ، وراحتهم فى النعيم المقيم ومنالتهم مايشتهون ونزهتهم فى جنائن وسكناهم قصوراً ، وتبسطهم فى فنون المطاعم ، ومتعهم بالحور العين .

وقد سار على مهل فى هذه الأوصاف واحداً واحداً فخلع عليه حلة من خيالاته ومغالاة من بدائع تصوراته وساعفه على ذلك التصور والخيال مامر فى القرآن الكريم من وصف لجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وإنى لأجل القرآن عن المغالاة والتهويل وإنما تلك أمور فى علم الله ، ذكرها فى كتابه الحكيم وللمؤمن أن تتشوف نفسه إلى خلود عالمها وبقاء نعماها بعد أن أحس الشقاء فى هذه الحياة الدنيا . ولولا ماركب الخالق فى طباع الإنسان من الميول والمشاعر ، والنوازع والدخائل . وفيها الأمل واليأس ، لما كانت نشأت قضية الآخرة فى سائر الأديان السماوية . ولقد نشأ التقابل بين خلقة الإنسان والطبيعة منذ كانا . فلولا النور لما خلقت عيوننا ، ولولا الأصوات لما خلقت حناجرنا . فالجنة فى نوازع النفوس ، وتركيب الخيال فى الأذهان .

غير أن أبا العلاء نسج على تلك الصور المأمولة فى العقائد الإسلامية إبراداً من الوهم الخارق خرج به عن نطاق الجد إلى الهزل .

ولست أشك فى أنه أحب أن يداعب على بن منصور كما يداعب الداهية المحنك شيخاً مهووساً ليجعله هُزأة المتهكمين وسلوة الساخرين ،

فأبو العلاء أمات ابن القارح ثم بعثه وخرج به يوم الدين فطوفه بالجنة والنار ، وأراه مُتع النعيم وأهوال الجحيم . ولكنه لم يكن فى ذلك معنياً بسوى الأدب واللغة والنحو ، وجرائم الاعتقاد ، وعذابات الملحدين . وظلت الأخلاق عنده قليلة الذكر . فأين الريبة والخبائث ، والفجور والمفاحش ، والجور والمظالم ، والتنكيل بأهليهـــا فى الآخرة . والاستفاضة فى تصوير ذلك وتخيله .

كل هذا مر به المعرى مرور الإلمام بغير مُقام .

وأول صورة على تهكمه فى الرسالة وسخريته ؛ ما أجراه من الكلام فى مشاجرة النابغة الجعدى مع أعشى قيس . فكان يقول له الجعدى إن دخوله الجنة من المنكرات وكان من حقه أن يكون فى الدرك الأسفل من النار ، وقد صلى بالنار من هو خير منه ، حتى يقول له :

(ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك) — كما تقدم — .

وفى هذا غمز ظاهر ، تخريجه بأن الكثير من أهل الجنة قد دخلوها بغير حق

أما التهكم الخفى والسخرية المكتومة فكانت فى الإوزّ اللواتى ينتفضن عن قيان كأنهن الدرارى يرفلن فى وشى الجنـة وبأيديهن المعازف . فيقول ابن القارح للنابغة الجعدى : (يا أبا ليلى اختر لنفسك واحدة منهن فلتذهب معك إلى منزلك تلاحنك أرق اللحان وتسمعك ضروب الألحان) .

فيقول لبيد : (إنْ أخذ أبو ليلى قينةً وأخذ غيره مثلها أليس ينتشر خبرها فى الجنة فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوزّ) .

فيكف أبو ليلى وصحبه عن الزواج بتلك الإوزات .

وتهكم آخر فيه لذع ؛ ذلك الحوار الذى جرى بين ابن القارح و بين (رضوان) بواب الجنة ، وصدوف رضوان عنه ، غير عابىء بشعره ، جاهلا ماهى الأشعار وأنه لم يسمع بهذه الكلمة قط . فينكر عليه رضوان الدخول إلا بإذن الله .

وحين أعياه الأمر انصرف إلى حاجب آخر من حُجاب الجنة فمنعه الدخول إلا بشفاعة نبيه . فتعلق ابن منصور بركاب إبراهيم ابن الرسول . فوجد نفسه لا يستمسك على الصراط . فقالت الزهراء أخت إبراهيم لجارية لها أجيزيه . فجعلت تمارسه وهو يتساقط من يمين وشمال . فقال لها ياهذه إن أردت سلامتى فاحمليني زقفونة . فقالت له وما زقفونة . فقال أن يطرح الإنسان يديه على كتفى الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه على ظهره . وضرب لها مثلا ببيت من الشعر فيه ذكر الزقفونة قاله الجُحْجُلول من أهل كفر طاب . فقالت الجارية لابن منصور ماسمعت بزقفونة والجحجول ولا كفر طاب إلا الساعة . فلما عبر الصراط بعد أن حملته هذه الجارية وجازت به كالبرق وقف بباب الجنة فسأله رضوان : هل معك جواز ؟ فقال لا . فقال لاسبيل إلى الدخول إلا به ولكن إبراهيم رجع إليه فجذبه جذبة حصل بها فى الجنة .

وكل هذا لذع ظاهر ، وتهكم لاريبة فيه . وهل بعد حملة الزقفونة سخرية أبعد ، وتهكم أجرح . وتخريج آخر لهذه الصورة فى النقد الساخر أن قضية الشفاعة والزُّلفى التى كانت معروفة فى الدنيا لاتزال هى هى فى الآخرة ؛ وبين يدى الحشر وفى دخول الجنة .

وقد تهكم أبو العلاء بعدل الله وغفرانه تهكما أخفى وأشد استسراراً وذلك فى عرض إبليس راسفاً فى الأغلال راجفاً مضطرباً فى السلاسل ؛ ومقامع الحديد تهوى عليه بأيدى الزبانية ، وهو غير مشغول عن الشعر بما هو فيه من العذاب ، فيقو لابن القارح إنه راض عن بشار لأنه مدحه وفضله على آدم بقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يامعشر الأشرار

وإذا بشار موجود ثمة ، وقد أغمض عينه لئلا تهوله مشاهدة عذاب الزبانية له والزبانية يفتحون عينيه بكلاليب من نار فيأسف ابن القارح على بشار لما نزل به ويقول له : (كنت فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظناً أن التوبة ستلحقك بمثل قولك) :

إرجع إلى سكن تعيش به ذهب الزمان وأنت منفرد

وقولك :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للمخلف غير الرد

ويقصد أبو العلاء أن بهذه المعانى الغرر ، والحكمة الباقية شفاعة لمثل بشار من هذا الضر الذى نزل به فى الآخرة ، وكأنه يقول ولكن الله يأبى أن يغفر له .

كذلك أبطن المعرى معانى لاذعة فى نسيج من الكلم ، ساخر حينا سخرية ظاهرة ، وآونة خفى السخر دقيق التهكم .

الفصل الثانى

التهكم العلائى

السخرية والتهكم فن لا يؤتاه إلا لوذعى بصير بمداخل الكلام ومسارب الفكر . وقد كان أبو عثمان الجاحظ فى أدباء النثر شيخ هذه الطريقة اللاذعة ، فظهرت فى أدبه أقوال التهكم . بعضها خفى وبعض ظاهر وكان هذا الفن ملاحة بيانه وحلاوة معانيه . طبعته أمه عليه وخاله . فلقد جاع يوماً فقدمت إليه أمه طبقاً عليه الكتب وقالت له : كل هذا . وقصدت تقريعه بهذا التهكم ، إذ كان أهمل شؤون البيت واكتفى بالتحبير والمدارسة . وخاله « يموت بن المزرع » كان يقول الشعر وكان معروفاً بالسخرية والتهكم .

وفى شعراء الإسلام كان جرير يطلع فى أبيات هجوه أزاهير سخرية وتهكم لكنها قليله نادرة . فلما قال مدافعاً عن راويته مربع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مِربعُ

خرج على مألوف الهجاء الذى عرفته العرب فى جاهليتها وإسلامها وكان إذاع كلام وشتائم وسبابا . على أن حنكة زهير بن أبى سُلمى فى دخائل الكلام لم تحرمه هذا الفن ففى هجوه لآل حصن تهكم ولذع ظاهر بيِّن غير الهجاء .

ولما جاء ابن الرومى أتقن هذا الفن . ورب كلمة منه ذات سخرية لاسعة تنفذ فيما لا تنفذ الإبرة ، ولا يقوم مقامها القصيدة الطويلة الأبيات فى الهجاء والتجريح .

وكان المتنبى عارفاً بمكامن التهكم فقد سخر ولذع رجلين قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره وكل منهما يدعى أنه تولى قتله :

كلا الرجلين اتّـلى قتله فأيكما غل حر السلب
وأيكما كان من خلفه فإن به عضة فى الذنب

ولم يكن أدب العرب محروماً من فن التهكم . لـكنه كان نزوات على أسلات الأقلام بين الصفحة والصفحة ، أو أبياتاً تجىء بين القصيدة والقصيدة ، أو جملا يندّ بها الكلام فى مطاوى الخطب أو مراحل الحديث . ولم يكن فى أدبنا العربى أديب واحد عرف بين الجميع ، وتميز من رفاقه بفن التهكم ونزعة السخرية كما تميز (فولتير) من أدباء فرنسة ، وكما عرف (أنا طول فرانس) بين كتابها فلقد كان فولتير لذاعاً مشهوراً بأسلوبه التهكمى ولا يكاد يخلو له أثر من لمزات السخرية حتى عرف فى الأدب الغربى بالكاتب الساخر .

أما أنا طول فرانس فـكفى بسخريتـــه دليلا قصة (تاييس) راقصة الإسكندرية . فإن فى أعمال القس (بافنوس) وأقواله مواضع لتهكم أناطول ومواطىء لقلبه الساخر المبين .

وإنى لأجد بين أبى العلاء وأنا طول توافقاً وتشابهاً فى (النقد الدينى) . فأنا طول نقد مشاهد من المسيحيـة بواسطة أعمال أجراها ؛ وأقوال قالها (بافنوس) . وأبو العلاء صنع أبعد من ذلك وكان سباقاً إلى نقد دينى أروع فنقد مشاهد إسلامية من الجنة والنار بواسطة أقوال قالها أدباء وعلماء حاورهم فيها أو جادلهم على بن منصور الشيخ الأديب الحلبى .

ولم يقتصر أبو العلاء فى بث تهكمه خلال رسالة الغفران ، لـكنها بدا له تهكم فى سياق اللزوميات وخلال بعض رسائله . ولم يكن فى أكثر سخريته وتهكمه عادياً ولا ظالماً ، وإنما كان (حر الفكر) كغيره من رجال الفكر الذين خلدوا فى جبين الدهر . قالوا حقاً ولم يتهيبوا عنت المؤاخذين . ولقد ضحى بعمره الطويل فى سبيل فكره النبيل . فاتخذ الشعر والنثر أداة لنقد نقائص المجتمع ومثالبه ، وكان كرسول إصلاح للأمة العربية . فوق ما كتب له من رقة الحال ، وقلق البال ، فإنه خرج من الدنيا وقد أدى رسالته .

المصادر من كتب أبي العلاء

لزوم ما لا يلزم الطبعة التجارية الثانية بمصر

اللزوميات طبعة المحروسة بمصر لعزيز زند الجزء الأول سنة ١٨٩٢ م والجزء الثانى سنة ١٨٩٥

سقط الزند وعليه شرح التنوير طبعة المعارف بمصر سنة ١٣٤٢ هـ

السفر الثانى من آثار أبي العلاء فى شروح سقط الزند . للجنة إحياء آثاره ط دار الكتب بمصر سنة ١٩٤٦

ضوء السقط طبعة بيروت سنة ١٨٨٤ م

رسالة الملائكة طبع لننغراد ١٩٣٢ م لكراتشكوفسكى

رسائله طبع أكسفورد ١٨٩٨ لمرجليوث، مقابلة على الطبعة البيروتية مع مقدمة له بالانكليزية عن المعرى .

رسائله طبع بيروت سنة ١٨٩٤ م لشاهين عطية اللبنانى والشيخ عباس الأزهرى وخليل الخورى

رسائله طبع السعادة بمصر

رسائله إلى داعى الدعاة الفاطمى . الطبعة السلفية بمصر ١٣٤٩

الرسالة الفلاحية طبع كراتشكوفسكى الروسى سنة ١٩١٣ م

رسالة الغفران لليازجى طبعة هندية بمصر ١٩٠٣ م

الفصول والغايات طبعة حجازى بمصر سنة ١٩٣٨ . وقوف الأستاذ الزناتى

المصادر القديمة

إرشاد الأريب (معجم الأدباء) لياقوت الرومى الحموى طبعة البابى بمصر الجزء الثالث ص ١٠٧ وما بعدها

نكت الهميان للصفدى ص ١٠١ وما بعدها طبعة مصر ١٣٢٩ هـ

obeikandl.com

وفيات الأعيان الجزء الأول طبع باريس سنة ١٨٣٨ بوقوف البارون (أوسلان) ص ٤٧ — ٤٩

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة الخانجى بمصر ١٩١٣ الرابع ص ٢٤٠

المشتبه فى أسماء الرجال لشمس الدين الذهبى طبع ليدن سنة ١٨٦٣ ص ٤٩٢

مرآة الجنان للإمام اليافعى الطبعة الأولى ، حيدر آباد سنة ١٣٣٨ الجزء الثالث ص ٦٦ — ٦٩

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى طبع دار الطباعة بمصر ١٢٧٤ه ص ٦٦ — ٧٠

رسالة ابن القارح إلى أبى العلاء فى رسائل (البلغاء للاستاذ محمد كرد على طبعة مصر ١٣٣١ ه) والطبعة الثانية — للجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ بمصر

شذرات الذهب لابن العماد الحلبى طبعة القدسى بمصر سنة ١٣٥٠ه الجزء الثالث فيها ترجمة لأبى العلاء ج ١ ص ٢٨٠

مخطوط (إنباه الرواة على أنباه النحاة) لأبى الحسن القفطى) . نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية « رقم ٢٥٧٩ تاريخ » — ص ٤١

كان الفراغ من وضعه قبل السفر الجليل الذى أخرجته وزارة المعارف المصرية باشراف الدكتور طه حسين بك وسمته (تعريف القدماء بأبى العلاء) طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٣ — ١٩٤٤ فى القاهرة بمناسبة اشتراك الحكومة المصرية بالاحتفال بألف سنة على ميلاد أبى العلاء المعرى فى مهرجان المجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٤٤ ، ١٣٦٣ فى ٢٥ ديسمبر وسائر البلاد السورية . فثنيت النظر فيه مفيداً من هذا السفر الذى جمع المصادر فى سجل واحد .

obeikan.com

مصادر بالفرنجية عن أبي العلاء

Clement Huart : Littérature able.
Georges Salmon : Les Poêtes aveugles (abul - alâ)
ومعه مقارنة بين أبي العلاء وعمر الخيام حول الأفكار المتشابهة عندهما

Etude sur les Personnages mentionnes dans (l'idjaza du cheik ABD' el quadir Fasy طبع باريس سنة ١٩٠٧
تأليف محمد بن شنب الأستاذ في جامعة الجزائر ص (441) فقرة (244)

Le message du Pardon d'abul ala el Maarri, Par maïssa
Préface de W. marçais طبع باريس المكتبة الشرقية لجوتنير ١٩٣٢
رسالة بأسماء كتب أبي العلاء طبع باليرمو ، سنة ١٩١٠ margoliouth

مصادر في علم النفس التحليلي
خاصة بفصل (المعرى في ميزان فرويد)

trois essais sur la théorie de la sexualité par Freud.
الطبعة الثانية والثلاثون لغاليمار بباريس ١٩٣٢

Introduction a la Psychanalyse Par Freud.
طبعة بايو بباريس ١٩٢٦ .
معلمة القرن العشرين بالفرنسية الجزء الثالث ص ٦٣٨
كتاب التعلم والتعليم تأليف Learning and Teaching ١٩٤١
هوغيس طبعة لانجمان بلندن ص (32,33) .